في سبيل ثقافتنا العامة : ١

البكالوريا اللبنانية والتعليم العصري

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢

تقدم لنا ، في «مشرق» كانون الثاني ، كلام عن اسباب انشاء البكالوريا اللبنانية ، وعما رمت اليه حكومتنا من الغايات الحميدة في خلق مقياس رسمي تُعرض عليه معارف من يتخرجون في المدارس المختلفة ، فاذا وُجدت مطابقة لما يتطلبه البرنامج الموحّد ، أقرّتها اللجنة الفاحصة واتالت صاحبها الشهادة الرسمية بإتمام تنشئته الثنوية . وقد اطلعنا مؤخرًا على تقارير اللجان الفاحصة في الدورة الاولى من امتحانات البكالوريا الجديدة منشورة في «نشرة المعارف العمومية» للمفوضية العليا (*Bulletin de l'Enseignement*) ، فرأينا ان ندرس ما تدلّ عليه هذه التقارير ، ونستخلص ، من نتائج الامتحان ، استعداد المدارس لتطبيق البرنامج الجديد ، واستعداد الطلاب لاساغته ، قبل ان نخوض في نقد اقسامه قسماً قسماً .

نتائج الامتحان الاول

أُنشئت البكالوريا اللبنانية بمرسوم صدر عن رئيس الجمهورية بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٩ . على انه لم يُنشر بالطبع الا في شهر اذار ، فلم يتمكن ارباب المدارس من الوقوف عليه وتطبيقه الا وقد مرّ من السنة المدرسية اكثر من خمسة اشهر ، ولم يبقَ بينهم وبين الفحص ، الذي عُيّن له يوم ١٧ حزيران ، سوى ما يقلّ عن الثلاثة الاشهر . وان ساغ لنا ان نبدي ملاحظة لوزارة المعارف ،

بهذه المناسبة ، فاننا نأخذ عليها اسراعها في تعيين الدورة الاولى لامتحان البكالوريا اللبنانية ، ولم يمرّ على نشر برنامجها الوقت الكافي لكي يدرسه مديرو المعاهد ، ويمدّوا طلّابهم لتفهم موادّه بتؤدة وترتيب .

بيد ان هذا الاسراع في تطبيق البرنامج ، ومن ثمّ عدم استعداد الطلّاب ، لم يثبط همم هؤلاء عن اقتحام الامتحانات . فلم يظهر المرسوم المعيّن تاريخ الامتحان حتى تهافتوا بالعشرات على ادارة المعارف يقيدون اسماءهم ، ويلتمسون الشروح اللازمة عن اجراء الفحص ، فلم يُقفل دفتر القيد الا وقد ضمّ ثلاثة وخمسين اسماً من طلّاب الشهادة الجديدة .

اما نتيجة الفحص فكانت ابعد من ان تكافئ نشاط هؤلاء الطلّاب اذ لم ينجح على ٥١ طالباً تقدموا للامتحان الّا اربعة عشر[1] منهم ١٣ على ٣٦ في الفرع الادبي او ما يوازي ٣٧ بالمئة ، و ١ على ١٦ في الفرع العلمي او ما يوازي ٦ بالمئة ، بينما كانت نتائج امتحانات البكالوريا الفرنسوية تفوق ذلك بكثير . فنجح في الفرع الادبي B من البرنامج القديم ١٥ على ٢٠ او ٧٥ بالمئة وفي الفرع العلمي D ٢ على ٦ او ٣٣ بالمئة . ونجح في الفلسفة من البرنامج ذاته ٢٢ على ٣٩ او ٥٦ بالمئة وفي الرياضيات ١٤ على ٢٢ او ٦٣ بالمئة . اما طلّاب البرنامج الفرنساوي الجديد المطبق لاول مرة ، فنجح منهم في فرع A' ١١ على ٢٠ او ٥٥ بالمئة ، وفي فرع B ٣٧ على ٩١ او ٤١ بالمئة[2]

فترى في جميع الفروع ان معدل الناجحين في البكالوريا الفرنساوية يفوق بكثير معدل الناجحين في البكالوريا اللبنانية . فلِمَ هذا التفاوت ؟ قد يقول البعض ان النجاح الذي حازه ارباب البرنامج الفرنساوي القديم ناتج عن سهولة الفحص وشفقة الفاحصين ، اذ كانت هذه الدورة الاخيرة من نوعها بعد ان حُوّر البرنامج واوجدت الاقسام الجديدة ، A' و B للبكالوريا الفرنسوية . قد

---

١) كان من الناجحين ٥ من كلية القديس يوسف ، و ٣ من مدرسة الحكمة المارونية ، واثنان من المدرسة الملكية ، واثنان من مدرسة الاخوة المريمين في جونيه ، واثنان تقدما من تلقاء نفسيهما .

٢) راجع تفصيل ذلك في *Bulletin de l'Enseignement, VII, 5 et 6*

يكون شيء من ذلك ! على ان الفرق يظل كبيراً بين نتائج الشهادة اللبنانية ونتائج الشهادة الفرنسوية ذات البرنامج الجديد.

ولا يسعنا نسبته الى ان البرنامج الفرنسوي الجديد احكم وضعاً وانسب لعقول الطلاب من برنامجنا ، لان هذا الزعم مردود بالمقابلة بين البرنامجين وبالاستناد الى شهادة ارباب التعليم من الفرنساويين انفسهم الذين قاموا على برنامجهم الجديد وبينوا اخطاءه في مقالات عدة ، كما سنبيّن عند نقدنا لبرنامجنا . ثم لا يمكننا نسبة الفشل الى قساوة اللجنة الفاحصة ، وتحاملها على الطلاب المساكين . فهذه القساوة البريئة وهذا التحامل العدائي لا وجود لها الا في مخيلة الطلاب الراسبين يتعزّون بهما عن سقوطهم ، او في مخيلة بعض الناجحين يستخلصون منهما اسباباً جديدة لفخرهم وتبجحهم بالنجاح على الرغم من صعوبة الفحص ، وظلم الفاحص . والا فيشهد الله ان اللجنة كانت تفتش برجاء كبير عن مسابقة تستحق لصاحبها علامة ١٠٠ فتضعها فرحةً بان توفر لهذا الشاب ولأهله ومعارفه اسباب الفرح والسرور . الّا انها لم تكن لتوفق في غالب الاحيان . وما ذاك — وهذا هو السبب الحقيقي للفشل في الامتحان الاول — الّا لعدم استعداد الطلاب لتقديم الامتحان الثنوي ، ولانصراف اكثرهم الى الاخذ برصف القوالب الفارغة عن التفكير في الموضوع المطروح عليهم . وقد اشرنا الى ذلك في التقرير الذي رفعناه الى وزارة المعارف ، على اثر تصليح المسابقات الخطية في آداب اللغة العربية ، وهذا هو بنصه :

الفرع الادبي

القي على الطلاب ثلاثة موضوعات في آداب اللغة العربية هذا نصها :

١ — كيف نشأت الاسواق في الجاهلية ؟

٢ — ما هي مزايا الشعر الجاهلي ؟

٣ — اي اثر احدثته الحضارة العباسية في اللغة من حيث اغراضها ومعانيها والفاظها واساليبها ؟ اوضح ذلك بالامثلة .

فكان ان الموضوع الثاني ظهر اسهل من الباقين فنال الافضلية واختاره ثلثا المتسابقين فوضعوا امامنا ٢٤ مسابقة في الشعر الجاهلي . على ان اكثر هذه

المسابقات كانت خارجة عن الموضوع . فبدلًا من ان يحدّد الطلّاب تقسيم موضوعهم بدقّة ، ويسيروا عليه بترتيب ، معدّدين صفات الشعر الجاهلي صفة صفة ، رأيناهم يُسهبون دون فائدة في ماهية الشعر واصله ، ويملأون الصفحات الكبيرة باعادة ما علق بذاكرتهم من الاساطير والحوادث حول نشأة الشعر العربي ، وتاريخ العرب ، وجغرافية جزيرتهم ايضاً . وكلها امور لا دخل لها في الموضوع المطلوب . ممّا دلّ على فساد تنشئتهم الادبية وعلى انهماك اساتذتهم بتقوية ذاكرة التلاميذ دون الاكتراث لتوسيع عقلهم ، او الاهتمام بتدريبهم على التأليف المنسّق المعقول . بيد ان منهم خمسة او ستة ادركوا الطريق المستقيم في التأليف ، فجمعوا اطراف موضوعهم بتقسيم وافٍ وجالوا فيه عارفين فنالوا علامات جيدة مثل ١٤و١٥ على ٢٠ ، بينما كان زملاؤهم من الذين كتبوا بلغة اصح واسلوب امتن لا ينالون الستة او السبعة على عشرين الا بالجهد ، لخروجهم عن الموضوع .

واختار سبعة طلّاب الموضوع الاول ففهمه ثلاثة منهم فهماً كافياً . ولكن لم يكن في مسابقاتهم ما يستحق ذكرًا خاصًا .

اما الخمسة الباقون فاختاروا الموضوع الثالث . وهو يُقسم الى قسمين : الاول تاريخي ، والثاني ادبي يوضح بالامثلة ما كان يجب ان يُذكر من الاحكام في القسم التاريخي . فكان ان اربعة على خمسة لم يهتموا بهذا القسم الثاني .

الخلاصة انه بين ٣٦ مسابقة في الفرع الادبي ، رأت اللجنة الفاحصة ١٠ مسابقات فقط تستحق العلامة المتوسطة او علامة اعلى .

فعلى الاساتذة ان يهتموا بفهم روح التعليم الثنوي الذي ينصرف الى تغذية عقل الطالب وتدريبه على التأليف الصحيح ، قبل انصرافه الى حشو ذاكرته بالنكات الادبية وتعويده رصف القوالب الفارغة وصقل العبارات الرنانة .

الفرع العلمي

اما في الفرع العلمي فكانت النتيجة شرًّا منها في الفرع الادبي . وهذه

الموضوعات الثلاثة التي طرحت على الطلاب :

١ – من هم الشعراء الثلاثة المقدمون في العصر الاموي ؟ قابل بينهم وقل من تفضل ، ولماذا ؟

٢ – صف الحركة الفكرية في عصر المأمون .

٣ – ماذا تعرف عن دور اللبنانيين في نهضة الآداب العربية في القرن التاسع عشر ؟

ولما كان اكثرهم من اللبنانيين رأوا من الطبيعي ان يختاروا الموضوع الثالث . على ان الصفة اللبنانية وحدها لا تكفي للنجاح ، ولهذا لم تر بين المسابقات التسع في الموضوع الا مسابقة واحدة تستحق علامة حسنة . وهنا ايضاً ينبغي لنا ان نعيد ما لاحظناه من انصراف الطلاب اجمالاً الى وصف الجمل الفارغة دون الاهتمام بالمعاني .

اما السبعة الباقون فاختاروا الموضوع الاول ، وهو يظهر اسهل الثلاثة لانه واضح التقسيم . ولكن لم ينجح فيه الا طالبان اجتهدا في التخلص من النقص العام الذي لاحظناه مرات في اكثر المسابقات .

واما الموضوع الثاني فكان اصعب من ان يخوض فيه طلاب لم يستفدوا الاستعداد الكافي لمثل هذه الامتحانات[1] .

ويستنتج الحكم نفسه من تقرير السيد باريزو ، مقرر لجنة اصلاح المسابقات في آداب اللغة الفرنسوية . فانه اشار الى اتكال الطلاب على ذاكرتهم وما وعته من التواريخ واسماء الكتب والاشخاص دون الاهتمام باعمال عقلهم في درس الموضوع وتحديد اقسامه[2] . وكلها امور تنافي مبادئ التعليم الثنوي كما قدمنا .

وكذلك كان رأي الاخ مارك ، مقرر لجنة اصلاح مسابقات النص العربي ، او النقد الادبي[3] ، فقال :

« والذي يرهن على ضعفهم (الطلاب) وعدم فهمهم ما يُقترح عليهم هو

١) راجع النشرة المذكورة ... *Loc. cit. p. 107*

٢) .. *Loc. cit. p. 97*

٣) قد نعود فنفرد درساً خاصاً في قواعد النقد الادبي وكيف يجب على الطلاب ان يسيروا كي يتمكنوا من فهم القطعة الادبية ولمس ما فيها من الجمال اولاً ، ومن اظهار ما فهموه وما لمسوه ثانياً .

انه قد طُلب منهم ان يشرحوا القطعة التي أعطيت لهم شرحاً يتناولها من الوجهتين النحوية والبيانية . فكان ان اكتفى العدد الاكبر منهم باعراب مفرداتها اعراباً نحوياً ، وبتحليل بعض عباراتها تحليلاً بيانياً . وانشأ غيرهم مقالات في النحو والبيان او في سيرة احد رجال العرب المذكور في القطعة ، مع انه لم يطلب منهم شيء من ذلك.»[1]

ولم تكن تقارير امتحانات الرياضيات والفيزياء والكيمياء لتخفف مرارة هذا النقد، بل بالعكس فقد ذكر المقررون ما لاحظوه من انحطاط مستوى الطلّاب العلمي سواء كان ذلك في المعلومات او في التنشئة الرياضية والطبيعية. وقد ظهر تأثير ذلك في النتيجة النهائية اذ لم ينجح الّا واحد على ١٦ في الفرع العلمي.

* * *

فنرى من ثمّ ان المسؤولية في هذا الفشل تكاد تنحصر اولاً بالوزارة لاسراعها في ابتداء الامتحانات قبل ان تترك لارباب المعاهد المدّة الكافية لتطبيق البرنامج الجديد ؛ وثانياً بالمعلمين الذين لم يعوّدوا طلابهم طرق التفكير الصحيحة ، فجنحوا بهم عن اساليب التنشئة الثنوية الحقة ؛ وثالثاً بالطلاب انفسهم الذين تهافتوا على تقديم الامتحان ولا عدّة لاكثرهم الّا الغرور بسهولة نيل البكالوريا لأنها جديدة ، والامل برحمة الفاحصين.

اما نصيب البرنامج من كل ذلك فسندرسه في مقال آخر.

---

(١) *Loc. cit. p. 110*.